

الفصل السابع

الاقتصاد والإدراك والاتصالات

فى القرن التاسع كتب مؤلف فى بغداد مقالة قصيرة ، كان عنوانها « نظرة واضحة إلى التجارة » وقد ناقش المؤلف فى هذه المقالة السلع المختلفة التى هى أساس التجارة : أنواعها وصفاتها ، وأماكنها الأصلية ، وخصص جزءاً من مقاله لقائمة السلع المستوردة من « الأقطار الأخرى » إلى أن الأقطار الأخرى كلها تتكون تقريباً من المقاطعات المختلفة للإمبراطورية الإسلامية الممتدة الأطراف فى آسيا وأفريقيا . كان هناك أربعة أقطار فقط خارج نطاق السيطرة الإسلامية ، وهى : أراضى الخرز وهى مملكة الترك فى السهب الأوراسى والهند والصين وبيزنطة ، ومن بلاد الخرز ، يؤتى بالعبيد رجالاً ونساء ، والدروع ، والخوذات وملابس الرأس المصنوعة من الدروع . ومن الهند تستجلب النمر ، والفهود ، والأفيال وجلود الفهود ، والياقوت الأحمر ، وخشب الصندل الأبيض ، والأبنوس وجوز الهند ، ومن الصين يحضرون العطور والبورسلين ، والورق ، والحبر ، والطاووس والخيول ، والسروج ، والألبان والقرقة ونبات الرواند . ومن بيزنطة يؤتى بالأوانى الفضية ، والذهبية ، والدينارات الإمبراطورية النقية ، والأعشاب الطبية ، والملابس المطرزة الوشى ، والخيول والإماء ، وأدوات من النحاس الأحمر والأقفال ، والقيثارات ، ومهندسى المياه ، والمتخصصين فى الزراعة ، وعمال الممر والخصيان ، وليست هناك إشارة إلى أوروبا حيث كانت صادراتها قليلة جداً وتافهة بحيث لم تذكر ، ومن المحتمل أن بعضاً منها ربما كان موجوداً فى قائمة بيزنطة ^(١) .

إن الروايات التى ذكرها الجغرافيون المسلمون فى العصور الوسطى عن السلع التى

تأتى من غرب أوروبا لا تأثير لها . أما الواردات القادمة من اسكندنافيا عن طريق روسيا تبدو ذات أهمية كبيرة إلى حد ما ، وبالإضافة إلى الكتابات الأدبية . . فإن هذه التجارة قد تركت وراءها وثائق مهمة وأساسية ، انطبعت على العملات الإسلامية ، والتي كان معظمها من دروسك فى وسط آسيا ، وكذلك فى اسكندنافيا وبالذات فى اللقيات السويدية .

إن مؤلفى العصور الوسطى يعطوننا القليل جداً من المعلومات عن الأحوال الاقتصادية فى الغرب وابن يعقوب فى حديثه عن أوترخت Utrecht لاحظ : « إنها مدينة عظيمة فى أرض الفرنجة وهى واسعة الأرجاء ، وأرضها مالحة ولا يمكن للبذور أو النباتات أن تنمو فيها . والناس يتقوتون من الماشية لبنها وصوفها ، وليست هناك أخشاب تستخدم للإشعال ، ولكن لديهم نوعاً من الطمى يستخدم وقوداً . وما يحدث هو التالى : فى الصيف . . عندما تجف المياه يذهبون إلى حقولهم ويقطعون الطمى بفئوسهم على شكل قوالب طوب . وكل رجل يقطع على قدر احتياجه ، ثم ينشره فى الشمس لكي يجف . ثم يصبح بعد ذلك خفيفاً جداً ، وإذا قرب من اللهب . . فإنه يلتهب والنار تشتعل فيه كما تشتعل فى الخشب ، ويعطى قدرًا كبيراً من اللهب ، مع قدر كبير من الحرارة مثل لهب منفاخ نافخى الزجاج . وعندما يتم احراق قطعة منه بالكامل . . فإنها تترك رماً لا فحماً » .

وابن يعقوب لديه ملاحظات مشابهة عن مدن أخرى زارها ، أو سمع عنها . إنه يقول عن بورردو « إنها غنية بالمياه والأشجار والتمر والحب ، وعلى شواطئها يوجد الكهرمان الممتاز » .

أما مدينة روين فهى : « مبنية من أحجار منتظمة ، تتناسق على نهر السين الأعشاب والأشجار لاتنمو هناك مطلقاً، ولكن هناك الكثير من القمح والحبوب ، ويصطادون السمك من النهر ، ويطلقون عليه سالمون ، وهناك نوع آخر من الأسماك صغير وطعمه ورائحته مثل الخيار . . فى الشتاء فى روين عندما يكون البرد شديداً . . يظهر نوع من الأوز ذى قدم حمراء ومنقار أحمر ، وهذا النوع لايفقس إلا على جزيرة

غير مسكونة ، وأحيانا .. تتحطم السفن فى البحر ، ويستطيع الذين يصلون هذه الجزيرة أن يعيشوا على بيض وفراخ هذا الطائر لمدة شهر أو شهرين .

وعن شليزونج يذكر :

« إن المدينة بها أشياء جيدة وقليلة . ويتكون غذاؤها من السمك وهو وفير . وعندما يولد طفل لآى شخص يلقى فى البحر من أجل توفير نفقاته . »

ولكن انطباعه عن ماينز كان أكبر ، يقول :

« إنها مدينة عظيمة جداً بعضها مسكون والآخر مزروع ، إنها فى أراضى الفرنجة على نهر يسمى الراين . وهى غنية بالقمح والشعير والحبوب والموايح والفاكهة . وهناك دراهم مضروبة فى سمرقند عام ٣٠١ - ٣٠٢ هـ (٩٣٤ - ٩٣٥ م) باسم الحاكم وتاريخ الإصدار هناك شىء غير طبيعى ، فرغم أن هذه المدينة تقع فى أقصى الغرب .. إلا أن بها توابل من التى لا تحصل عليها إلا من أقصى الشرق مثل الفلفل والزنجبيل والقرنفل والمسك ، والخولنجات . هذه التوابل تجلب من الهند وتجدها بكثرة فى هذه المدينة^(٢) . »

كان لدى الكتاب المسلمين ، فى العصور الوسطى المتأخرة معرفة أوضح إلى حد ما ، فعلى سبيل المثال .. يعرض الإدريسي معلومات مفضلة تماما . حتى الأماكن البعيدة مثال إنجلترا لاحظ « ابن صاعد » صفة مميزة لها : « توجد مياه الأمطار فقط فى هذه الجزيرة وبفضلها تنمو المحاصيل . وفى الجزيرة توجد مناجم الذهب والفضة والنحاس والصفيح . وليس لدى أهلها الكروم ؛ نظراً للبرد الشديد وينقل الناس إنتاج هذه المناجم لفرنسا ، ويستبدلونه بالخمر ، وهذا هو السبب فى أن حاكم فرنسا لديه الكثير من الذهب والفضة^(٣) . »

أما المؤرخ الفارس رشيد الدين .. فقد تأثر بثروة إنجلترا التى « تحتوى على مناجم لا حصر لها من الذهب والفضة والنحاس والصفيح والحديد . وأنواع كثيرة من الفاكهة أيضاً . » وقد لاحظ رشيد الدين كذلك ، أن تجار الفرنجة يسافرون إلى مصر

وسوريا وشمال أفريقيا والأناضول وتبريز، عن طريق مدينة جنوا^(١١) .

إن ثلاثة فقط من السلع المتوجة ، فى وسط وغرب أوروبا ، جذبت اهتمام المسلمين وهى العبيد السلاف والأسلحة الفرنجية ، والصوف الإنجليزي ، ونظراً لأن القانون الإسلامى يحرم استرقاق أى مسلم حر ، أو أى ذمى حر من الرعايا دافعى الجزية فى الامبراطورية الإسلامية . . فإن العبيد الموجودين فى الأراضى الإسلامية إما أن يكونوا قد ولدوا عبيدا ، أو هم من خارج الامبراطورية . وقد ثبت بسرعة أن الزيادة الطبيعية لانفى بالفرض لسد حاجة الأعمال التى يقوم بها العبيد . والامبراطورية الإسلامية على العكس من الامبراطورية الرومانية والامبراطوريات القديمة لم تستطع زيادة عبيدها عن طريق استعباد المجرمين ، والذين عليهم دين لذلك كان يجب استجلاب عبيد جدد من وراء الحدود الإسلامية بواسطة الأسر ، أو الشراء .

وكان هذا من الأشياء المميزة للاختلاف بين الامبراطورية الإسلامية والامبراطوريات الأخرى . فى العصر القديم . . كان أغلبية العبيد من أصل محلى باستثناء فترات مابعد الحملات الناجحة . وعلى العكس من ذلك . . فى الامبراطورية الإسلامية كان أغلبية العبيد يأتى بها من خارج الأرض الإسلامية . وقد أدى هذا إلى تطور قوى لتجارة العبيد فى كل الأقطار المجاورة للعالم الإسلامى من أجل سد حاجتها المتزايدة .

كان المصدران الرئيسان للعبيد بالنسبة للامبراطوريات الإسلامية من السهول الأوراسية فى الشمال ؛ حيث كان العبيد من البيض ومعظمهم من الترك ، وكانوا يستخدمون بشكل رئيسى فى أغراض عسكرية ، ومن أفريقيا المدارية فى الجنوب ؛ حيث كان العبيد السود الذين يتم أسرهم أو شراؤهم يستخدمون فى الأعمال المنزلية والأعمال الأخرى . لقد كانت هناك أيضاً مناطق أخرى لجلب العبيد ، وكانت أوروبا واحدة منها . ومن الطبيعى أن العبيد الذين هم من أصل أوروبى . . كانوا فى الأراضى الإسلامية الغربية ؛ وخاصة إسبانيا ، كما حدث فى المناطق الأخرى ، لقد جلب هؤلاء عن طريق الحملات العسكرية . وكان الفرد الوثنى الذى يؤسر فى ميدان المعركة يعتبر من الناحية القانونية عبداً ، ولفترة ما يعتبر هذا وافياً للفرض .

ويتوقف الزحف الإسلامي الذي استتبعته فترة من الجمود ، ثم التدهور التدريجي . . لم تعد امدادات أسرى الحرب وافية بالغرض ، خاصة أن هؤلاء الأسرى قد يدفعون فدية أو يستبدلون . ومن هنا أصبح الحصول على العبيد مقصوراً على الشراء ، وازدهرت تجارة استجلاب العبيد الأوروبيين من الذكور والاناث ، لسد احتياجات مسلمى اسبانيا وشمال أفريقيا . . عرف هؤلاء العبيد المتبقين في الغرب المسلم بالصقالية ، وهي الكلمة العربية لجمع الصقلي أو « سلاف » كما هو الحال في لغات أوروبا ، فكلمة « سلاف » وعبد يبدو أنهما يحتويان معنى عرقياً ذا أصل اجتماعي مشترك . وفي كتابات الجغرافيين . . تشير كلمة Saqaliba للشعوب السلافية Slavonic المختلفة في وسط أوروبا وشرقها . وفي تواريخ إسبانيا الإسلامية . . أصبحت كلمة صقلي اصطلاحاً لحراس الخلفاء الأمويين في قرطبة تماماً مثلما الماليك الأتراك في الخلافة الشرقية . والصقالبة الأوائل في إسبانيا يبدو أنهم كانوا أسرى ، أسرهم الألمان في غاراتهم على أوروبا الشرقية ، ثم تم بيعهم إلى مسلمى اسبانيا . وفي وقت ما . . أصبح المصطلح صقلي يضم كل العبيد البيض الذين يخدمون في الجيش أو في المنازل . أن ابن حوقل المؤلف العربي في القرن العاشر ، الذي سافر وزار اسبانيا المسلمة ، لاحظ أن العبيد الأوروبيين الذين قابلهم لم يأتوا من شرق أوروبا فقط ، بل من فرنسا وإيطاليا وشمال اسبانيا . وبعضهم لا يزال يؤسر ليس عن طريق الحملات العسكرية ، ولكن بواسطة الغارات التي تتم من البحر .

وكذلك استمر الاستيراد التجاري للعبيد من فرنسا ، وقد يمكننا استعارة كلمة المؤرخ الهولندي دوزي كانت هناك صناعة للخصيان *Manufactory of eunuchs* في مردون^(٥) .

إن التركيب المميز للمجتمع الإسلامي كان كفيلاً بأن يصبحوا عنصراً مهماً جداً في المجتمع الاسباني العربي ، ذلك أننا نجدهم يخدمون كقواد ووزراء ، ويملكون ثروات طائلة وأحياناً يملكون عقارات وعبيداً خاصة لهم . ونظراً لأنهم اكتسبوا اللغة العربية . . فنجد منهم الباحثين والقراء والعلماء بأعداد هائلة ، حتى إن أحدهم في عهد

هشام الثاني (٩٧٦ هـ / ١٠١٣ م) قد ألف كتابا كاملا عن مزايا وانجازات الصقالبة فى الأندلس ، ولم تبق من الكتاب أية نسخة .

وعندما أسس الفاطميون خلافتهم فى تونس فى وقت مبكر من القرن العاشر ، وتقدموا نحو الشرق لغزو مصر . . قام العيد الصقالبة بعد حوالى ٥٠ عامًا بدور ذى أهمية . ان جوهر الذى قاد الجيش الذى غزا مصر ، وأحد مؤسسى القاهرة ربما كان سلافيا^(٦) .

لقد اشتغل كثير من الأوربيين بتصدير العيد للعالم الإسلامى ، وتضمنت قوائم التصدير . . مسيحيين ويهودا ومواطنين من المدن التجارية الكبرى فى ايطاليا وفرنسا ، وكذلك فى اليونان فى شرق البحر المتوسط ، وقد مارس البنادقة درواً مهماً ؛ حيث بدأوا فى منافسة الاغريق فى هذه التجارة منذ عصر مبكر فى القرن الثامن .

ويبدو أن الأوربيين كان يؤرقهم بيع عيد مسيحيين للمسلمين فى أسبانيا وشمال أفريقيا ومصر ، ومع أن هذا قد حسه شارلون والبابا زخارى والبابا هاردان الأول الذى حاول إنهاء هذه التجارة . أما البنادقة . . فقد كانوا جريئين إلى درجة جعلتهم يبيعون عبيدا من الجنسين فى قلب مدن روما^(٧) .

وكانت البندقية هى المصدر الرئيسى لتوريد الخصيان للبلاطين الإسلامى والبيزنطى ، وقد وصلت هذه التجارة إلى هذا الحد وأصبحت عملا شاقا ، وفى أوقات حرمها الحكام البنادقة أنفسهم ، وإن لم يكن هذا التحريم ذا أثر كبير .

لقد كانت التحريات والادانات غير ذات أثر فى وقف هذه التجارة المربحة . إن الموقع الجغرافى للبندقية على حافة الأراضى السلافية ، وكونها على اتصال بحرى سهل بالدول الإسلاميه قد أعطى البحارة البنادقة ميزة كبرى ، وكذلك جزيرة بولا Pola فى البحر الأدرياتي التى أصبحت من أملاك البندقية ؛ حتى أصبحت سوق عبيد رئيسية .

وهناك مصادر أخرى لتوريد العبيد ، فلقد كان القراصنة المسلمون من إسبانيا وصقلية وشمال أفريقيا ، يغيرون على سواحل البحر المتوسط المسيحية ؛ خاصة فى

القرن ١٠ ، ١١ و ١٢ ، ويحملون أعداداً كبيرة من الأسرى . ففى عام ٩٢٨ . . يقال إن بعثة أو حملة واحدة على البحر الأدرياتي عادت إلى ميناء المهديّة فى تونس وتحمل ١٢٠٠٠ أسير ، وكان قائدها صابر Sabir وهو عبد سلافى معتنق لحاكم صقلية ، وكان دائم الإغارة على سواحل ايطاليا ودلماتيان .

استمر هذا الأسلوب لتجارة الرقيق خلال العصور الوسطى ، ولم يبدأ فى الاختفاء إلا منذ القرن الخامس عشر ، وهناك سبب واحد لهذا التغير ، وهو أن التجار المسلمين فى بحثهم عن التوابل (انظر ص ٢١٦) بدأوا فى ايجاد طريقهم إلى مصادر الامداد مباشرة . لقد كان الوسط يخادع كلا الطرفين . وبينما كان البرتغاليون يدورون حول أفريقيا ، ويحضرون توابلهم من مصادرها فى الهند الشرقية . . كان الأتراك يتقدمون فى البلقان . والبحر الأسود ، ويأخذون حاجاتهم من العبيد مباشرة من شعوب شرق ووسط أوروبا (انظر ص ٢١٦) ، للشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، وخلال القرنين ١٥ ، ١٦ . . كان جنوب وشرق أوروبا هو المصدر الرئيسى للإمداد بالعبيد ؛ حيث كان تقدم العثمانيين للجهاد يؤدى إلى جلب امداد ضخمة ، ومستمرة من الألبانيين والسلاف والوالاش والمجريين ؛ وأيضاً المسيحيين من أقطار أخرى ، كان بعضهم يسجد بواسطة المشهور ، والأطفال المسيحيين من الشعوب الخاضعة للإمبراطورية ، والبعض الآخر أسر فى المعارك فى القرن ١٧ هجرى Devshirme تدريجياً ، وفى نفس الوقت كان الخمول الذى أصاب الحروب بين العثمانيين Hapsburgs يعنى أن الغزو لم يعد قادراً على الامداد بالعدد الكافى من العبيد ؛ لسد احتياجات المجتمع العثمانى .

ولكن وجد البديل ، لقد كان خانات التتار فى Crimea وهم أسرة مسلمة مستقلة ، تعترف بالسيادة العثمانية يرغبون فى تجارة عظيمة للعبيد من خلال غاراتهم . لقد كان المغيرون التتار يأسرون العبيد من روسيا وبولندا وأوكرانيا وشرق أوروبا يحضرون إلى كرميسيا ؛ حيث يباعون ويشحنون إلى إسطنبول ، ثم يوزعون على الأسواق الإمبراطورية العثمانية . وان حصار السهوب ، كما يطلق التتار على أرضهم ، جعلهم يقدمون إمدادا كبيراً ومستمرًا من العبيد من كلا الجنسين ، وذلك حتى عهد

متأخر من القرن ١٨ ، عندما توقفت غزوات التار بعد ضم كرميا إلى روسيا .

إن الدور الذى لعبه الأبطال المسيحيون من البلقان ، ثم الذين جنّدوا فى خدمة العثمانيين خلال الـ Devshirme معروف جيدا . التحقت أعداد كبيرة منهم بالجهاز العسكرى والبيروقراطى العثمانى ، الذى أصبح يدار فى وقت ما بهؤلاء المجندين الجدد . إن صعود الأوروبيين من البلقان لسدة السلطة العثمانية ، لم يمر دون أن يلاحظ . وهناك كثير من الشكاوى من العناصر الأخرى من العبيد القوقازيين ، حيث كانوا المنافسين الرئيسيين لهم ، وكذلك من المسلمين الأحرار والقدماء ، الذين أحوا بالإهانة لتفضيل العبيد الجدد عليهم . إن الشاعر فيزى Veysi يكتب فى وقت مبكر من القرن ١٧ عن الاضطرابات الامبراطورية وأسبابها ، وقد لاحظ من بين الأشياء المحزنة « أنه لمن الغريب أن هؤلاء الذين ينعمون بالسلطة والمراتب العليا كلهم ، البانيون وبوسنيون Bosnians ، بينما شعب رسول الله المسلمون (أى المسلمون القدماء أو ربما العرب) يعانون المهانة »^(٩) .

إن تأثير مجندى الـ Devshirme كان كبيرا حقا ، كثير منهم وصلوا إلى أعلى المراتب فى الامبراطورية العثمانية ، وبعضهم الآخر برزوا كباحثين وشعراء بل كقضاء مسلمين ولاهوتيين . ان دور الفلاحين من شرق أوروبا ، الذى أرسله التار عبر البحر الأسود غير معروف عند القليل ، ويعد أيضا أقل خطراً فهم على عكس مجندى الـ Devshirme الذين نادراً كانوا ما يصلون إلى طبقة الأعيان العثمانيين ، وخدموا فى أماكن أكثر تواضعا وأدنى مكانة .

ولم يكن هؤلاء مقصورين على الأشكال الاعتيادية للخدمة فى المنازل والحريم ، وقد كان العبيد يستخدمون لأغراض اقتصادية على النقيض من الظن المقبول بشكل شائع .

إن توظيف العبيد فى الزراعة والمناجم كان من قبل فى العصور الوسطى ، مع أن هذا لم يكن يبدو شائعا للإنتاج أيضاً . وفى زمن العثمانيين . . لدينا معلومات مؤكدة

عن استخدام عبيد الأعمال فى المزارع بصورة كبيرة ، مع أنهم لم يكونوا مملوكين بالكامل ، وكانوا يعملون تحت حماية الحكومة .

ربما يمكننا جمع فكرة ما عن الأهمية النسبية للمجموعات الجنسية المختلفة للعبيد من الأدب الإسلامى فى هذا الموضوع . فنحن نملك عددا من تلك النصوص المكتوبة بالعربية والفارسية والتركية ، تمتد من أوائل العصور الوسطى حتى القرن ١٨ ، وتصف خصائص الأجناس المختلفة للعبيد ، والأغراض التى يمكننا استخدامها من أجلها ، وتكلم الأعمال الأولى عن العبيد من أصل آسيوى وأكثر خصوصا من أصل أفريقى . إن الكتابات العثمانية فى هذا الموضوع تعطى بعض الاهتمام بالعبيد السلاف والأوروبيين الشرقيين ، ولاتناول الأوروبيين الفرنسيين ، إلا فى حالات يمكن استثناءها^(١٢) .

وفى العصور التالية . . كان المصدر الوحيد لعبيد أوروبا الغربية فى العالم الإسلامى بحق القراصنة المسلمون الذين ظلوا يأسرون السفن فى البحر وأحيانا يغيرون على الشواطئ المسيحية . هؤلاء قد دخلوا فترة جديدة من النشاط المكثف فى بداية القرن ١٧ ، حيث وصلوا لشواطئ إنجلترا وإيسلنده ، ومع هذا كان أسراهم يؤخذون أساسا من أجل فدية ، أكثر منها للاستخدام ، ولم يعودوا يكونون سلعة تجارية ذات أهمية . . إلا أن بعضا منهم ظلوا مع أسراهم المسلمة ، مختارين أو غير مختارين . المجموعة الأولى ، وأغلبهم ذكور تتكون من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام ، ووجدوا عملا فى خدمة القراصنة الأوروبيين السابقين خلال وقت مبكر فى القرن ١٧ ، حيث مارسوا مهنة القباطنة مع المسلمين ، وقد جلبوا مهارات مفيدة لسادتهم الجدد ، فى بناء السفن ، والمدافع والملاحة ، ومنهم من خدم أيضا فى قيادة المسلمين إلى بعض الشواطئ البعيدة وغير الحصينة الخاصة بغرب أوروبا ؛ حيث وجدوا أسلaba وفيرة . وليس هناك دليل على أن مثل هؤلاء المغامرين كان لهم أى ضغط على الدول المضيفة .

هناك مجموعة أخرى من الأسرى الذين أسرههم القراصنة المسلمون ، وكانت اقامتهم فى الأقطار الإسلامية بغير طواعية ، ولكنها دائمة ، وهؤلاء كانوا من النساء

الذين بسبب جمالهم استبقوا كمحظيات ، أو إرسلوا بيما أو إهداء إلى دور الحرير في الشرق الأوسط . أما الصنوفة . . فكانوا يجدون مصيرهم الأخير في الحرير الإمبراطوري في إسطنبول كمحظيات للسلطان أو لكبراء الدولة .

إن آباء سلاطين العثمانيين مشهورون ، ولكن المعروف عن أمهاتهم قليل ، وكان معظمهن إماء في الحرير السلطاني ، وقد أخفيت شخصياتهن وأصلهن ، حتى أسماؤهن عن التاريخ ، وذلك لأن البيت المسلم كان يحافظ على المرأة في صمت في المنازل وقد دفعها بعض الناس إلى التفكير في أصل هؤلاء السيدات اللاتي وصلن إلى القصر إماء مغمورات ، ثم وصلن إلى مواقع ذات سلطة عظيمة كأمهات للسلطين الحاكمة . وهناك كثير من القصص حول أمهات السلاطين وقد قيل أن بعضهن كان من أصل أوروبي ، وأكثرهن شهرة هي Naksidil وهو الاسم الذي أعطى في الحرير إلى أم السلطان المصلح العظيم محمود الثاني . وطبقا لأسطورة متشعبة فقد كان اسمها Aimee du Bue de Rivery وهي سيدة فرنسية من Martiniqu وابنة عم جورفين ، ولكن ليس هناك دليل يمكن الاعتماد عليه يؤكد هذه القصة . وهناك دليل أفضل في حالة نوريانو محظية سليم الثاني ، وأم خليفته مراد الثاني ، وهي سيدة تنتمي للبنديقية من أصل نبيل ، وطبقا لبعض الروايات يقال إنها أخت حاكم جزيرة كرفو الذي ينتمي للبنديقية ، وقد أسرها في سن ١٢ مغير تركي ، وأرسلت كهدية للسلطان سليمان العظيم الذي أعطاها لابنه سليم فيما بعد ، وهي خليفتهما صافية أم السلطان محمد الثالث الذي دخل في مراسلات مع البنديقية وانجلترا .

إنه من غير المحتمل أن تكون هؤلاء السيدات قد أسهمن في معرفة المسلمين بأوروبا ، أو حتى لأبنائهن سواء كانوا مملوكين أو غير ذلك ، وبطبيعة الحال فقد دخلت الحرير في عصر مبكر جداً ، ونظراً لطبيعة المجتمع المسلم . . كان تأثرهن خارج الحرير لا يذكر .

كانت تجارة الأسلحة على عكس تجارة العبيد تشهد نموا متواصلا ، حتى قبل الحروف الصليبية ، وهناك فقرات من النصوص العربية تمدح الجودة العالية للسيوف

الفرنجية Frankish ، وكذلك بالنسبة للأوروبيين في عهد الحروب الصليبية ؛ حيث أصبحت السيوف سلعة تصدير ذات أهمية ، وساعدت على إصلاح الميزان التجارى بين أوروبا والاقطار الإسلامية . إن تصدير الأسلحة إلى المسلمين ، مع أنه أكبر مصدرى العبيد ، أثار حنق السلطات الكنسية ، وأحيانا الملكية ، ولكن كان أثر هذا ضئيلا .

لم تكن الأسلحة الفرنجية هى الوحيدة التى وجدها المسلمون نافعة لهم ، ولكن أيضاً الرجال الذين صنعوها واستخدموها ، وهناك مؤرخ مصرى يتكلم عن رجال من الفرنجية ظلوا كصناع للأسلحة فى الأسطول وأماكن أخرى فى القاهرة تحت حكم الفاطميين^(١٢) وهناك جنود فرنجية ذوو حظ ، قد خدموا فى جيوش الحكام المسلمين من أسبانيا إلى الشرق الأدنى وآسيا الصغرى ، ويقال إن بعض الحكام المسلمين المبكرين للقسنطينية قد استجلبوا الآلات من المرتزقة المسيحيين ، بما فى ذلك مرتزقة من غرب أوروبا . ونسمع أيضاً عن تجار من جنوة وأروبيين فى خدمة حكام الشرق الأوسط ؛ وبالأخص حكام المغول^(١٣) .

كانت تجارة الأسلحة ، فى عهد العثمانيين ، واسعة جداً ، وتحوى المواد الخام الحيوية ، وفى عام ١٥٢٧ صدر قرار بابوى بواسطة البابا كليمنت السابع باللعنة والحرم له من الكنيسة لكل الذين يبيعون للمسلمين والأتراك ، وكل أعداء المسيحيين : الجياد والأسلحة والحديد ، والأسلاك الشائكة ، والصفائح والنحاس الأحمر والنحاس الأصفر والكبريت وملح البارود ، وكل الأشياء الصالحة لعمل المدفعية ، والأدوات والأسلحة والمكينات الخاصة بالحروب والتى يحاربون بها المسيحيين ، وكذلك الحبال والأخشاب المستخدمة فى البحرية ، وكذلك السلع والمواد المنوعة الأخرى « بعد قرن من هذا صدر قرار مشابه للبابه أوربان الثامن ، يحتوى على قائمة أطول قليلا لأدوات الحرب المنوعة ، وهو كذلك يعلن ويحرم من الكنيسة هؤلاء الذين يسارعون أو يعطون معلومات أو تهيئات للاتراك والأعداء الآخرين للمدين المسيحي ، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر^(١٤) .

لم يكن الفاتيكان وحده الذى اهتم بهذا الأمر ، فهناك شكاوى أخرى لحكومة أوروبية عن امداد قوى أوروبية منافسة أو معادية لمواد الحروب والمهارات العسكرية للاتراك . ففى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر . . اتهمت القوى الكاثوليكية القوى البروتستانتية ؛ خاصة الانجليزية ، بأنها تمد الاتراك بأدوات الحرب ، وخاصة الصفيح : « إن الاتراك يرغبون فى صداقة الانجليز من أجل الصفيح ؛ فمدافعهم تحتاج إليها بينما جنى الانجليز فائدة عظيمة عن طريق التجارة فيها مع الشرق ، وقد أسرت سفينة إنجليزية فى مالطة ، وكانت متجهة لتركيا ، وجد أنها تحتوى على ١٠٠ بالة من الصوف و ٧٠٠ برميل بارود و ١٠ براميل بندق و ٥٠ بندقية مركبة و ٢٠ سيفاً ، برميلاً مليئاً بسبائك من الذهب عالى النقاء و ٢٠٠٠٠ قطعة عملة ، ومبلغ كبير من الدولارات ، وأشياء أخرى ذات قيمة . وأكثر من ذلك حوت مذكرة مكتوبة صدرت بأمر السلطان ^(١٥) .

ومع هذا . . فلقد فشلت قرارات الحرمان الكنسى والتهديدات بالعقاب فى ردع هؤلاء الذين يجيئون منافع عظيمة من هذه التجارة . بل لقد ظلت الإمدادات الخاصة بالأسلحة ومواد الحروب بواسطة قوى مسيحية للعثمانيين والدول الإسلامية تنمو باطراد ، وفى وقت ما وصلت إلى درجة هائلة .

ويبدو أنه لم يكن لدى أوروبا سوى العبيد ومواد الحب ، لتعرضه على المشتري المسلم . ومع هذا كانت هناك سلعة أخرى ذكرها المسلمون مرات عديدة وهى القماش الانجليزى الذى كان مشهوراً فى العالم الغربى منذ بداية العصور الوسطى . وقد لاحظ ابن يعقوب الرحالة الذى سافر إلى الغرب فى القرن العاشر ذلك فى حديثه عن جزيرة شاشان ، وهى ربما انجلترا الانجلوسكسونية أن :

« هناك نوع من الصوف الفائق الجمال ، حيث لا مثيل له فى أى بلد آخر . وهم يقولون إن سبب هذا أن نساءهم يدهنون الصوف بدهن الخنزير الذى يحسن صنفه ، ولونه أبيض أو تراكواز وهو ذو جمال فائق » ^(١٦) .

إن ابن صاعد وهو كاتب وجغرافى متأخر عن ابن يعقوب لديه معلومات أكثر

قليلا ، إن قماش السكروتا الفاخر يصنع هناك (أى فى إنجلترا) . فى هذه الجزيرة لديهم أغنام لها صوف ناعم مثل الحرير ، وهم يفظون أغنامهم بالملابس ليحموهم من المطر والشمس والتراب ^(١٧) .

اقتبست فقرة ابن صاعد السابقة بواسطة الكتاب الجغرافيين المتأخرين عنه ، وهناك إشارة مستقلة فى وصف أوروبا الأفرنجية وردت عند رشيد الدين الذى لاحظ أن : « فى كلتا الجزيرتين (إيرلندا وإنجلترا) لديهم شياة ، تصنع من فروتها الملابس الصوفية وكذلك صوف السكروتا ^(١٨) .

إن أصل كلمة سكروتا متنازع عليه ، مع أنه من المحتمل أن الصيغ العربية والفارسية كلها مشتقة من العرب ، وليس العكس . وكان هناك جدل كثير عما إذا كانت الكلمة فى القرن ١٣ قد استخدمت لتشير إلى لون أو نوع معين من القماش . وسواء كانت هذه التجارة أو تلك ذات أهمية فى الشرق الأوسط . . فإن المصادر الثلاثة المذكورة آنفا تشير إلى أن السكروتا شىء معروف وموجود فى أوروبا البعيدة ، ومع هذا . . فى القرن ١٥ وثائق عثمانية تحتوى على إشارات واضحة إلى قماش إنجليزى يستورد كسلعة للولايات العثمانية ^(١٩) .

فى أواخر القرن ١٨ تغير الميزان التجارى بشكل حاسم لصالح أوروبا ، وضد الاقطار الإسلامية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا . لقد بدأت هذه العملية من قبل ظهور الصناعة والتجارة فى أواخر العصور الوسطى وأوائل القرون الحديثة . إن افتتاح وتطور الطرق البحرية التى تمر بالشرق الأوسط ، وحتى تجارة الحرير الفارسى التى كانت - فى وقت ما - مصدراً مهما للمواد الخام والعوائد الضريبية لتركيا . . أصبحت الآن إلى حد كبير خاضعة لتجار من أوروبا الغربية . وكان انشاء المستعمرات اللأوروبية فى العالم الجديد ، والنقاط التجارية فى الشرق قد أضاف إلى الطاقة والقدرة الصناعية الجديدة فى أوروبا نفسها ، وأخيراً أعطى التجار الأوربيين شيئاً أساسياً لعرضه على الزبائن فى الشرق الأوسط .

بمعنى أوضح . . فإن التكوين التجارى بين الإسلام والمسيحية قد عكس ، فذات

يوم كانت اوروبيا تستورد - القماش من الشرق الأوسط ، وأصبحت الآن تباع القماش ، وتستورد المواد الخام . إن العلاقة التجارية المتغيرة قد هوت بوضوح فى الانهماك الشرقى المعتاد أن كلا من القهوة والسكر قد أدخلوا إلى اوروبيا من الشرق الأوسط . والقهوة التى جاءت أساسا من الطرف الجنوبى للبحر الأحمر ، ربما من أثيوبيا ، وقد أحضرت إلى شرق البحر المتوسط فى القرن ١٦ ، انتشرت من هناك إلى اوروبيا . وحتى الربع الأخير للقرن ١٧ . كانت القهوة عنصراً مهماً من بين صادرات الشرق الأوسط إلى اوروبيا . وفى العشر سنوات الثانية للقرن ١٨ . . زرع الهولنديون القهوة (البن) فى جاوة Java وذلك عن أصل السوق الأوروبى ، بل لقد صدرت فرنسا البن المزروع فى مستعمرات الهند الغربية إلى تركيا . وفى ١٧٣٩ م ذكر أن بن الهند الغربية وصل إلى Erzurum شرق تركيا . أن البن المزروع فى المستعمرات والذى كان يتاجر فيه التجار الأوربيين ، كان أرخص من ذلك الذى يجئ من البحر الأحمر ، وقد أدى هذا إلى تخفيض كمية بن منطقة البحر الأحمر فى السوق . لقد كان السكر يتسبب للشرق ، وقد كان فى بادئ الأمر يكرر فى الهند وإيران ، وقد استوردته اوروبيا من مصر وسوريا وشمال أفريقيا ، ثم زرعه العرب فى صقلية وأسبانيا . ومن هناك أذ إلى جزر وسط المحيط الاطلنطى ، ثم عاد إلى العالم الجديد .

ومرة أخرى . . قدمت مستعمرات الهند الغربية فرصة أحسن استغلالها فى سنة ١٦٧١ ؛ إذ أقام الفرنسيون معملاً للتكرير فى مرسليا حيث صدروا السكر ، القادم من مستعمراتهم إلى تركيا ، وقد زاد الاستهلاك التركى له بشك ل هائل عندما بدأ الأتراك يحلون القهوة بالسكر وذلك ربما بسبب بن الهند الغربية الذى كان أشد مرارة . ومن هنا اعتمد بشكل كبير على السكر الأوروبى . ولقد كان سكر الهند الغربية أرخص ، وسرعان ما ساء سوق الشرق الأوسط . وفى نهاية القرن ١٨ وعندما كان الأتراك والعرب يشربون كلاً من القهوة والسكر يأتى من أمريكا الوسطى بواسطة تجار انجليز أو فرنسيين . . المياه الساخنة فقط هى التى كانت ذات مصدر محلي .

هناك سلعة أخرى فى هذه التجارة الجديدة وهى الطباق ، لقد كان الطباق سلعة

جديدة تماماً على العالم الإسلامى ، وقد أحضرها التجار الإنجليز من المستعمرات الأمريكية ، والمؤرخ برسيفى يكتب من حوالى ١٦٣٥ ويتكلم عن « مجئ الطباق ذى الرائحة الكريهة والدخان المقرز ، ويقول إن « الإنجليز الكفار أحضروه فى عام ١٠٠٩ (١٦٠١) وباعوه كعلاج لبعض أمراض الرطوبة . . ومع هذا . . فإن استخدامه امتد بسرعة فيما وراء الأغراض الطبية . وقد استخدمه « الباحثون عن اللذة الشهوانية ، وكذلك الكثير من العلماء والأقوياء » وفى فقرة أخيرة يصف برسيفى الشعبية المباشرة للرديلة الجديدة ، وآثارها . أن التدخين لا يتوقف فى المقاهى . . إن المقاهى أصبحت مملوءة بدخان أزرق إلى درجة أن الجالسين فى هذه المقاهى لا يستطيعون رؤية بعضهم بعضاً ، « حتى الأماكن العامة قد سُمم المتعاطون أجواءها » ، « لم تكن الأنايب التى يدخنون فيها تترك أيديهم وكان كل شخص ينفخ الدخان فى عين الآخر ، وقد جعلوا الشوارع والأسواق تنتثر الرائحة » . وبالرغم من كل هذه الآثار السيئة فإنه ببداية عام ١٠٤٥ (١٦٣٥ - ١٦٣٦) أصبح انتشار الطباق وشهرته ، لا يمكن أن تكتب أو يعبر عنها .

فى نهاية القرن ١٨ ساعد الضعف الاقتصادى للشرق الأوسط على تمهيد الطريق للسيادة السياسية والعسكرية لأوروبا فى القرن التالى . ولكن الكتاب المسلمين أظهروا معرفة ضئيلة بهذا ، ولقد ظل الأدب الاقتصادى للغرب غير معروف كلية للقراء المسلمين . ولم يترجم عمل واحد ، ذو محتوى اقتصادى إلى العربية أو الفارسية أو التركية ، حتى القرن ١٩ . . حتى الروايات المحدودة عن أوروبا والتى كانت متاحة كانت تختص بالشئون السياسية العسكرية ، ولم يكن لديها شىء تقوله سوى القليل عن اقتصاديات الأمم الأوروبية . وربما يكون الاستثناء الوحيد لهذا هو السفير المراكشى غسانى ، الذى زار مدريد فى ١٦٩٠ - ١٦٩١ ، وكانت تعليقاته على آثار التوسع الأسبانى فى أمريكا ، قد أظهرت نوعاً من الفطنة وبعد النظر ، وصدى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

إن الأسبان لا يزالون يملكون كثيراً من المقاطعات والأراضى الشاسعة فى الانديز ،

وما يجلبونه من هناك يجعلهم أغنياء ، وباحتلال واستغلال الأراضي الهندية والثروات العظيمة التي جنت منها . . تملك الأمة الأسبانية اليوم أعم ثروة وأكبر دخل بين كل المسيحيين . ولكن حب الرفاهية ومباهج الحضارة قد غلبتهم ، ونادراً ما تجد واحداً من هذه الأمة يعمل بالتجارة أو يسافر للخارج من أجل التجارة كما تفعل الأمم المسيحية الأخرى مثل الهولنديين والانجليز والفرنسيين وأهالي جنوة وأمثالهم . وبالمثل . . فإن المهن التي تمارسها الطبقات الدنيا وعامة الناس كانت محتقرة من هذا الشعب ، الذي يعد نفسه أسمى من الأمم المسيحية الأخرى . ومعظم هؤلاء الذين يمارسون هذه المهن في أسبانيا فرنسيون ، ذلك أن وطنهم الأصلي لم يوفر لهم سوى حياة فقيرة ، فهاجروا لأسبانيا للبحث عن العمل وجمع المال . وفي وقت قصير . . كان باستطاعتهم اقتناء ثروات عظيمة . . . « (٢١) » .

إن السفير العثماني واصف الذي كان في إسبانيا في ١٧٨٧ ، ١٧٨٨ لاحظ بعض الآثار الاقتصادية للسبائك الأمريكية فيقول : « كل ثلاث سنوات يرسل الأسبانيون ٥ أو ٦ آلاف عامل لمناجم العالم الجديد ، وقد أصبح هذا ضروريا بالنسبة للدولة ، نظراً لأن معظم عمال المناجم لا يستطيعون التكيف مع الطقس ويموتون . إن الذهب والفضة كانا يأتیان إلى دار سك النقود في مدريد ، والشعب هزيل والزراعة ضئيلة ، وهذا ما أجبر الأسبانيين على استيراد المواد الغذائية من مراكش وهذا هو السبب في أنهم كانوا يطلبون العلاقة الطيبة مع الحاكم المراكشي ؛ فهو يبيع لهم الامدادات الغذائية بسعر عال مقابل ذهب وفضة غير مضرويين ، ثم تضرب عملة له في مدريد من هذه السبائك تحمل نقوشا باسمه » (٢٢) .

لقد كان لدى الوزير العثماني الكثير لكى يقوله عن الشئون الاقتصادية ، ولتند ناقش محمد سيد أفندي هذا أيضاً ، وتأثر بالمصانع التي زارها التي كانت تنتج القماش والزجاج (٢٣) .

في الجزء الأخير من القرن ١٨ . . أشار مبعوثون مثل رسمي وعزمى كثيراً إلى التجارة والصناعة في الأقطار التي زاروها . ان رسمي ذهب إلى برلين في ١٧٧٧ ،

والذى سافر عبر رومانيا وبولندا ، كان له عدد من التعليقات . . لقد لاحظ أنه « فى الملكة البولندية ، بجانب البولنديين . . هناك جنسيان آخريان هما الروس واليهود . أما الروس . . فيهتمون بالزراعة والأعمال الشاقة الأخرى ، بينما يقوم اليهود فى المدن بالتجارة فى القمح والسلع الأخرى ، وكل الأعمال الأخرى التى تدر ربحا عن طريق البيع والشراء . ولكن الربح أو الفائدة العظمى كانت فى أيدي البولنديين الذين كانوا أغنياء أصلا ، وكانوا يلبسون معاطف بها خيوط ذهبية وذات أكماف عريضة واسعة ، وكابا خفيفا من صوف الحملان . وفى بروسيا . . شاهد مصانع السكر والقماش ، ولاحظ أن الماكينات المستخدمة فى هذه المصانع صنعت فى مدينة برلين . لقد كانوا يصنعونه بأنفسهم أولا فى سكسونيا ثم بعد ذلك فى برلين^(٢٤) . إن خليفة عزمى الذى ذهب إلى برلين فى ١٧٩٠ ، كان أكثر اهتمام بالشئون العسكرية والسياسية ، ولكن كان لديه أيضاً ما يقوله عن الجهد الروسى الناجح لتأسيس الصناعات ، القوة التى تمنحها هذه الصناعات للبلاد^(٢٥) .

والاشارات إلى أوروبا فى الخطابات العثمانية قبل القرن ١٩ نادرة جداً . مثال واحد جاء فى عمل أدبى كتبه الشاعر Hashmet بمناسبة ارتقاء السلطان مصطفى الثالث العرش فى ١٧٥٧ . فى هذا العمل يصفى الشاعر التكريم والتشريف على السلطان ، ولكى يمجّد اعتلاءه العرش . يستخدم الأسلوب الأدبى الشائع الخاص بالحلم ، وموضوع المسلم المشهور الخاصة بملوك الأرض ، الذين جاءوا ليحترموا ويطيعوا رب الإسلام فى منامه ، ويرى الشاعر الملوك يصلون إلى الدولة ليقدموا فروض الطاعة للسلطان الجديد ، ويسألونه امتياز الخدمة فى بلاط السلطان . وهؤلاء الملوك يأتون إلى الشاعر واحدا بعد الآخر ، ويشرحون أغراضهم ، ويلتمسون منه المساعدة فى الحصول على الوظائف التى يريدونها . كل حاكم يذكر امتياز قطره ويطلب تعيينا أو وظيفة ماثلة فى بلاط السلطان الجديد . وإمبراطور الصين يسأل أن يكون أميننا على بورسلين القصر ، وإمام اليمن يريد أن يكون رئيس صانعى القهوة . ثم يأتى بعد ذلك ستة حكام أوروبيين بالترتيب التالى :

قيصر روسيا يسأل أن يكون صانع الفراء الأول ، أو رئيس صانعي الفراء ، والإمبراطور النمساوى الذى يزهو بمهارة بلاده فى صناعة الزجاج والكريستال والمرايا يسأل أن يكون رئيس صانعي الزجاج ، أما حاكم البندقية ، الذى يتحدث عن مهارة شعبه فى المعادن النفيسة فهو يطلب أن يكون رئيس الصياغ ، أما ملك إنجلترا الذى يتحدث عن إنتاج بلاده لمساحيق وأسلحة الحرب . . يسأل أن يكون مسئولاً عن مخازن الأسلحة والمساحيق ، أما ملك هولندا . . فهو يتحدث بزهو عن ازهار التوليب والأزهار الأخرى . . فهو يطلب أن يكون بستانيا ، وأخيراً ملك فرنسا الذى يصف إنتاج بلاده من القماش والملابس يسأل أن يكون مسئولاً عن أصواف الملابس ، ولم يذكر حكما أوروبيين آخرين^(٢٦) .

إن المنام الذى رآه حشمت ربما تكون له قيمة ضئيلة كتاريخ اقتصادى ، ولكنه يعطى انطبعا عن مدى رؤية العثمانيين فى منتصف القرن الثامن عشر لدول أوروبا ومتجانها .

وأبو طالب خان الذى زار إنجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر ، كرس فصلا كاملا فى كتابه لبيديات الصناعة ، التى استطاع أن يراها فى ذلك الوقت . لقد رأى فى عدد ودقة الماكينات السبب الأول لثروة وعظمة الانجليز . وهذا ما جعل الانجليز يمدون سلطانهم إلى أماكن بعيدة ، وهذا أيضاً ما جعل من المستحيل على جيرانهم الفرنسيين بالرغم من قوتهم وشجاعتهم أن يفعلوا أى شئ ضدهم . ويذكر أبو طالب ويصف أنواعا عديدة من الماكينات ابتداء من أبسطها وهى طواحين القمح ، مرورا بماكينات الحديد الضخمة التى تدار بالبخار ، ويعلق على صناعة المدافع والألواح المعدنية المسطحة والأبر ، ويبدى إعجابه بسرعة وكفاءة ماكينات الغزل . ويصف عملها ، وقد لاحظ أنه بواسطة هذا الاختراع . . أمكن إنتاج القماش بسرعة كبيرة جداً وبأيد عاملة ضئيلة جداً . ولكنه لم يعجب بالصنف ؛ حيث وجد أن نوع القماش أقل جودة من ذلك المصنوع على اليد فى الهند . وقد زار أبو طالب أيضا مصانع خمر ، وورق ، ومنشآت أخرى وكان لديه الكثير ليقوله عن المضخات التى تستخدم لمد لندن بالمياه . وقد سمع

عن ماكينات تستخدم فى المطبخ . وقد لاحظ أن « رجال هذه المملكة ليس لديهم صبر ، ويكرهون الأمور التافهة والأعمال التى تستهلك الوقت ، ولذلك . . اخترعوا ماكينات للعمل فى المطابخ للقيام بهذه الأعمال التافهة والأعمال التى تستهلك الوقت ، ولذلك . . اخترعوا ماكينات للعمل فى المطابخ للقيام بهذه الأعمال التافهة ، مثل شواء الدجاج وفرم اللحم وبشر البصل ^(٢٧) .

ويبدو أن أبا طالب قد زار عددًا من المصانع فى أجزاء مختلفة من القطر . ولقد تأثر بما رأى فى ذلك الوقت ، وعلق فى ملاحظاته السافرة على المنشآت الاقتصادية للقوة السياسية والعسكرية ، وتبدو العلاقة واضحة بشكل أكبر ، وناقشها بوضوح أيضًا زائر متأخر عن أبى طالب بقليل ، وهو خالد أفندى السفير العثمانى فى باريس من ١٨٠٣ - ١٨٠٦ ، لقد كان خالد أفندى رجعيًا تمامًا يحتقر الفرنسيين والأوروبيين ، ويعارض فكرة تقليدهم بأى شكل ؛ فالعلاج لديه واضح وبسيط : « يعلم الله أن وجهة نظرى هى أنه اذا استطعنا - كاجراء احتياطى كل ٣ أو ٤ سنوات ، توفير ٢٥٠٠٠ كيس من الجديد ^(٢٨) Asper ، وأنشأنا خمس مصانع لشنوق والورق والكريستال والقماش والبورسلين ، وكذلك مدرسة للغات الجغرافية . . فإنه فى خلال خمس أعوام لن يكون هناك شىء يسيطرون عليه ؛ نظرًا لأن أساس تجارتهم الحالية هو هذه السلع الخمسة ، فليمنح الله رؤساءنا القدرة على العمل والحماسة ، أمين » ^(٢٨) .

إن تأكيد خالد على الحاجة للتعليم المتطور قد تم من قبل ، وتوقع حدوثه بواسطة مصلحى القرن الثامن عشر ، كما أن إشارته للصناعات كواحدة من مصادر قوة أوروبا ، مع أنه قد عبر عنها ببساطة ، تعتبر قضية جديدة ومهمة بالنسبة للشرق الأوسط . وفى خلال القرن التاسع عشر . . أصبح هذا جزءًا من حكمة مقبولة ، وقد رأى الحكام المصلحون فى تركيا ومصر وإيران ، وأماكن أخرى ، العلم والصناعة كطلاسم سحرية يستخرجون بها الكنوز الضخمة للغرب الغامض .

(٢٨) عملة تركية قيمة تساوى ١/١٢٠ من القرش